الآداب
المجلد:24، العـدد:01، ديسمبر 2024
الصفحات: 167 – 180
ISSN 1111 – 4908 EISSN 2588 – 2228

شعرية اللون في الرواية الصوفية: رواية "بياض اليقين" لـ عبد القادر عميش (أنموذجا)

Color Poetry in Sufi Novel: The Novel of 'Whiteness of Certitude' by Abdelkader Ammich as a Model

[1] ط.د. خديجة ربيعي

[2] أ.د. نعيمة بولكعيبات

[1] جامعة قسنطينة1 الإخوة منتوري – مخبر السرد العربي– الجزائر khadidja.rebiai@doc.umc.edu.dz

[2] جامعة قسنطينة1 الإخوة منتوري – مخبر السرد العربي – الجزائر nboulkaibet@ymail.com

تاريخ الإرسال: 2024/05/03 تاريخ القبول: 2024/11/14 تاريخ النشر: 2024/12/15

ملخص:

يتعدى التداخل الأجناسي في السرد الجزائري المعاصر دائرة النصوص الأدبية التي تتضايف داخل النص الروائي إلى أشكال تعبيرية أخرى مستقاة من حقول معرفية وفنون متنوعة، ولعلّ اللون أحد الأشكال التعبيرية المستمدة من الفن التشكيلي قد برز توظيفه في الرواية نتيجة لما أفرزته موجة التجريب والحداثة؛ ويأتي توظيف اللون كعلامة سيميائية محملة بطاقات إيحائية ورمزية تتجاوز جوهره الفيزيائي الحسي نحو تشكيل المعنى العرفاني المتصل بالتجربة الصوفية.

وهذه الدراسة مقاربة سيميائية للتشكيل اللوني في رواية عبد القادر عميش "بياض اليقين" كنموذج برزت فيه صوفية اللون وشعرية المعنى.

كلمات مفتاحية: *التداخل الأجناسي؛ شعرية اللون؛ سيميائية اللون؛ الصوفية؛ الرواية الصوفية.*

Abstract:

Overlapping literary genres in contemporary Algerian narration passes the literary texts to other expressive forms derived from different arts and fields of knowledge. The color is an expressive form of fine art employed in the novel due to the experimentation and modernity wave. It is used as a semiotic sign with suggestive potentials trespassing their physical sensation to shape the cognitive meaning connected with the Sufi experience. This study presents a semiotic approach to color formation in Abdelkader Ammich's novel 'whiteness of Certitude' as a model in which Sufi color semiology and meaning poetry emerged.

Keywords: *Overlapping genres; color poetry; color semiology; Sufism; Sufi novel.*

المؤلف المراسل: خديجة ربيعي.

مقدمة:

تعدّ الرواية الصوفية نسقا سرديا فريدا يحظى بإقبال ملحوظ من طرف الروائيين والأدباء المعاصرين، وهو أمر يتجاوز كونه تقليعة جديدة أو (موضة) إبداعية في الكتابة، فهو أمر استدعته فرادة النص الصوفي من خلال خصائصه الفنية الجمالية من جهة، وعمق تجربته الروحية من جهة أخرى.

كما كان الحضور الصوفي في الرواية نتيجة لما أفرزته موجة الحداثة والتجريب الباحثة دوما عن النص المختلف والمدهش، من خلال استثمار تصورات وأساليب جديدة في الكتابة، فأنتجت نصا يقوم على رؤى عرفانية مستمدة من التراث الصوفي على مستوى التجربة، والظواهر الأسلوبية المختلفة واستدعاء المعجم الصوفي –تحديدا– على مستوى الكتابة.

وفي ظل هذا الانفتاح على الخطاب الصوفي بكل حمولاته النورانية والروحانية تناولت الرواية الصوفية المعاصرة موضوعات الراهن وشواغل إنسان هذا العصر المثقل بالعبء المادي الذي طغت عليه التكنولوجيا الحديثة، والرقمنة والذكاء الاصطناعي.. مما غيب الجانب الروحي الذي يحقق في الإنسان توازنه الداخلي وسلامه الروحي. فكانت الرواية الصوفية محاولة لخلق عالم روحي داخل العوالم السردية كمحاولة للهروب من الواقع الفج الموحش، وثقل العلائق المادية نحو آفاق أكثر صفاء وسموا.

ولعل هذه العوالم الروحيّة التي تحمل أبعادا عرفانية ذات رمزية متصلة بعمق التجربة الصوفية تخترق البنية السردية في كل مستوياتها من شخصيات، وزمان، ومكان، ولغة.. لتقف عند نوع روائي جديد هو "الرواية الصوفية" مختزنة داخلها تجربة تتجاوز الواقع الحسي الملموس نحو تجربة الفيض، والانعتاق والاتحاد بالمطلق. وهذه الرؤى لها انعكاسها الخاص داخل التشكيل السردي للنص بما تحمله من دلالات تتجاوز المعقول والمألوف لتشكل نصا إبداعيا مربكا للقارئ.

ويعدّ اللّون من المظاهر البصرية التشكيلية الصّرفة، وعلامة سيميائية أيقونية مهمّة، توجه فعل القراءة والتأويل، حيث تنطوي على دلالات مستمدّة من سياقات اجتماعية وثقافية متعددة، تختلف حسب اختلاف المرجعية الفلسفية والحضاريّة لكلّ مجتمع، فهي تعتبر علامة غير لغوية لكنّها تحمل دلالات تحوّلها إلى نوع من اللغة، وقد أولاها الإنتاج الإبداعي المعاصر أهمية "من خلال التجريب ... أو استدعاء تقنيات بصريّة داخل الأدب كما يظهر ذلك في استخدام التقنيات السنيمائية داخل الشعر والرّواية"[1].

إن الخطاب اللوني في الأدب –والرواية خاصة– أضحى ملمحا بارزا في تشييد المعمار الدلالي للنص المستند أساسا إلى رؤى موضوعية، وفنية، جمالية تساهم في إنتاج المعنى وفق مرجعيات تعكس حساسية اللون الدلالية المرتهنة بأبعاد نفسية وأنساق ثقافية يتغياها الكاتب، ويلون من خلالها بناءه السردي عبر هذا التداخل الأجناسي بين النص الروائي والفنون التشكيلية.

ويستدرج الإبداع اللون ليدخله إلى عالم الرواية والرواية الصوفية تحديدا، ويسهم في بناء شعريتها بوصفه علامة لغويّة رمزيّة يتداخل بين نسقين: التشكيلي واللساني من جهة وينفتح على التجربة الصوفية من جهة أخرى، ورواية بياض اليقين لعبد القادر عميش كست اللون جبّة الصوفيّ وألقت عليه حللا من الفيض العرفاني، فكان اللون هالة نورانية تماهت مع صور ومشاهد الرواية التي تباينت بين الواقعية والصوفية السريالية، والتي عايش من خلالها بطل الرواية_ الأستاذ الجامعي _ تجربة المسلم المثقف وهو يتفاعل سلبيا مع مآسي الأمة الإسلامية من خلال الاكتفاء بالمشاهدة وتقصي حقائق جريمة استشهاد الفتاة الشيشانية هايدي، التي تغتال على يد فرقة الموت الروسية غدانوف وينكل بجثمانها، وتتصدر قصتها وسائل الإعلام العالمية والفضائيات ومواقع الأنترنت.. هذه التقنيات التكنولوجية الحديثة تصبح فضاء للشطح الصوفي فيخترق بطل الرواية الصور الفجائعية لصور الدمار والقتل التي تنقلها الفضائيات ليرتقي لعالم صوفي يلغي به قتامة الواقع وسوداوية المشاهد، ويعيش تجربة "الانتكاسة" التي تعيشها الأمة متراوحا بين تجربتين هما: تجربة الحب الصوفي التي يتمثلها من خلال الفتاة الشيشانية هايدي، وتجربة الحب الفطري التي تمثلها طالبة الشريعة السمحة التي تكون وجها آخر لهايدي لكنه ينتهي إلى خذلانها والفرار في الأخير.

ولعل ازدواجية العالم السردي داخل الرواية بين الواقع المعتم والآفاق العرفانية النورانية لونت فصول الرواية بلونين أساسيين هما: الأبيض والأسود، وكان للون الأبيض حضور بارز وفارق حيث تجلى عند أولى عتبات النص من خلال العنوان الذي تلفع البياض وأضحى بؤرة إشعاع توجه الفعل القرائي للمعاني الصوفية والشعرية في آن واحد داخل الفضاء السردي للرواية.

1. سيميائية اللون في عنوان بياض اليقين:

يتخذ العنوان موقعا استراتيجيا هاما عند عتبات النص الأولى، وينطوي على أهمية بارزة تتعلق بتأويل وتوجيه الفعل القرائي للنص وقد أولاه الاتجاه السيميائي والسيميوطيقي عناية بالغة في دراستهم للنصوص

كونه مفتاحا إجرائيا قائما على وظائف أساسية: مرجعية وإفهامية، وتناصية، وإيحائية تطوق النص في بعديه الدلالي والرمزي.

و"العنوان لدى السيميائيين بمثابة سؤال إشكالي بينما النص هو بمثابة إجابة عن هذا السؤال، إن العنوان يحيل إلى مرجعية النص ويحتوي العمل الأدبي في كليته وعمومتيه، كما أن العنوان يؤدي وظيفة إيحائية"[2] ويحوز العنوان على وظيفة تعيينية إشارية ترتبط بالنص وغاياته، وأخرى إيحائية ذات رمزية تستدعي تفكيك البنيات الثاوية وراء البنيات السطحية للعنوان من خلال تحليل مستوياته التركيبية، والدلالية والتداولية.

وهو في رواية عبد القادر عميش يتجاوز التعيين إلى الوظيفة الشعرية حين ينفتح على المفارقة اللونية بعبارة "بياض اليقين" فيندمج اللون –كخصيصة حسية تدركها العين المبصرة– باليقين الحامل لدلالة معنوية غيبية متصلة بأمداء نورانية "فضلا على أن الـ (مفاجأة) المرتهنة بإيقاع البياض تضيف قيمة سيميائية أكبر لمنطقة العنوان المركزي، إلى الدرجة التي يمكن أن تحيل على عنصر البياض وعنصر المفاجأة فيشكلان حضورا وقيمة ومعنى"[3] هذا المعنى الذي اتخذ فيه الانزياح عنصر المفاجأة، من خلال العدول عن عبارة "عين اليقين" –المرتبطة بالعرفان الصوفي ومراتبه– نحو خطاب لوني يكتسي البياض ويفتح المجال لأسئلة النص منذ عتباته الأولى عن علاقة البياض باليقين، وهل استطاع اللون بحساسيته داخل العرفان الصوفي أن يخلق حالة إبداعية داخل الرواية انطلاقا من عنوانه؟

وبالانفتاح على المعنى المعجمي لليقين الذي يلتقي مع البياض ليزيد الدلالة توترا وإلغازا، من خلال تعريف ابن منظور في قوله: "واليقين: العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقانا، فهو موقن، ويقن ييقن يقنا.. واليقين: نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، تقول علمته يقينا"[4].

فاليقين حسب لسان العرب العلم لا يداخله ريب أو شك فهو الوضوح والتجلي الذي لا تشوبه شائبة. الأمر الذي يجعل هذا المعنى يتماهى ويتقاطع مع الدال اللوني "البياض" باعتباره من الألوان الأساسية "والأبيض بحكم كونه يختزل الألوان جميعها هو اللون البدئي لذا يصبح عند موافقته النهارية لون الكشف والرؤيا والنعمة، والتجلي المبهر، وموقظ الإدراك والفهم ومتجاوزهما في آن معا ، إنه لون التجلي الإلهي الذي يبقى محيطا بكل من يتعرف إلى الله على شكل هالة من النور الذي هو حاصل أو مجموع الألوان"[5] وعليه يشكل البياض داخل الجملة العنوانية للرواية بؤرة ضوئية مسلطة على نوع من اليقين والوعي الخاص وهو: "الوعي الصوفي" الذي تجاوز فيه الكاتب مراتب اليقين عند الصوفية المتمثلة في: علم اليقين،

عين اليقين، حق اليقين. إلى صيغة لونية تنسجم مع مقامات الكشف والتجلي التي يرتبط بها اللون الأبيض في طاقاته الإيحائية المتعلقة بالصفاء والوضوح.

بالإضافة لانتماء هذا اللون لبعد نوراني متسامي يجعل العنوان يحف النص الروائي بهالة من الوهج الصوفي ليصدّره للقارئ نصا منتشيا بأنوار العرفان، فاللون هنا يتموضع داخل تجربة خفية عصية على الفهم مرتدة لعوالم الباطن يمثل فيها البياض حالة التجلي والكشف كما قال عنه لوكور بوزييه: "إنه الوضوح والنزاهة ضعوا إلى جانبه ألوانا أو أشياء غير نظيفة، وسنكتشف سريعا أنه عين الحقيقة"[6] فتتحد الدلالة اللونية للبياض مع الدلالة العرفانية لتضع المتلقي أمام نص حالة ذوقية يمتزج فيها الغيبي بالحسي حيث ينفتح الكاتب من خلال الدال اللفظي اللوني "البياض" على معانيه الشعرية والرمزية داخل فضاء التأويل، خاصة حين يرافق السواد هذا البياض داخل الرواية فيبعثان شعرية التضاد .

2. سيميائية النقيض: جدلية الأبيض والأسود:

يعبّر اجتماع اللون (الأسود / الأبيض) عن التناقض و التّنافر، ودرجة قصوى من المفارقة، وعن اجتماع النّقيض بنقيضه وهي معان توحي بالصراع والتّجاذب، "ننطلق من اللّون الأبيض الذي يقع نظيرا للون الأسود ، حيث يعدّان رفقة اللّون الرّمادي ألوانا حياديّة، فمن وجهة النّظر العلميّة، الأبيض والأسود ليسا لونين حقيقيين، فالسّطح الأسود يمتصّ معظم الضوء وربما كلّ الضوء الذي يسقط عليه، أمّا الأبيض فيعكس كلّ الضوء الذي يسقط عليه، وتعدّ الألوان البيضاء والسوداء والمركب منها _ أي الرّمادي _ هي ألوان لا لونيّة أو محايدة من دون وجود أيّة خاصيّة تتعلّق بالهوية اللونيّة المميّزة لها"[7].

ولعلّ الوقوف عند دلالة اللون حسب التّصوّر الصوفيّ يبيّن الغاية من استخدام كلّ لون حيث يتخذ البياض درجات نورانيّة ممتدة من الأديم الثلجي المدنس بدم هايدي، ليسمو مخترقا لسديم السماويّ نحو الجنان المضاءة بأنوار الحق "فاللون الأبيض له دلالة التحريض إلى جهة النّور الأعظم، وهي جهة الاطمئنان الذي يُخرج المرء من الشّقاء الدّائم"[8] ليتوافق هذا المفهوم وسياق الرواية المشعّ بنورانيّة الشهادة وسمو الروح إلى عليائها من خلال الأجواء الشتويّة المزدانة بالثلوج التي تحيل دوما لحادثة مقتل هايدي "يذكرني هذا الجوّ الثلجي بليلة مقتل هايدي ، كانت ليلة ثلجيّة أيضا.."[9] ليغدو البياض كفنا يوشح الأجواء بالحزن كلّما تراءى في الأمداء فلا تتحقق الطمأنينة التي ينشدها المعنى الصوفيّ في دلالته الروحيّة، وهذا اللون بحدّ ذاته يوحي لدى السّارد بالتناقض "هكذا هو الثّلج يجمع بين المتناقضات في لحظة غامضة. كما يصنع الأفكار

الغامضة أيضا. للحزن وقت وللفرح وقت. وللثلج بياضه الخاص، ويقينه الذي لا ينكر. فقط أنا وحدي أجمع المتناقضات دفعة واحدة في لحظة واحدة"[10] فالبياض هو منزلة الشهداء وهو لحظة الصفاء واللقاء والوصول، حين يلتقي السارد ببياض الصفحة، "وهو يمثّل "نعم" في مقابل "لا" الموجودة في الأسود. إنّه الصّفحة البيضاء الّتي ستكتب عليها القصّة. إنّه أحد الطرفين المتقابلين. إنّه يمثّل البداية مقابل النّهاية، والألف في مقابل الياء"[11].

ولأنّ هذا اللون يعدّ لونا حياديا هذا الأمر يجعله يوحي بعوالم بعيدة عن الواقع، هي عالم الأفكار والوحي والرؤى والإلهام، عالم تحيا فيه روح السارد مع الأرواح الطاهرة كما في قوله: " الصّور أمامي تتماوج ويحاصرها الضباب .. أتوّسل للوجوه الوضيئة أن تبقى قليلا.."[12].

"ووجه هايدي الوضيء"[13] وتغدو الأمكنة أكثر طهرا كقوله: "يأخذ رجل الثّلج بأيدينا ويمضي بنا في عالم أبيض، بياض اليقين.. كلّ شيء أبيض، أرض بيضاء، شجر أبيض، بشر بيض مدن بيضاء لا شية فيها تسرّ النّاظرين، وجوه ناظرة إلى ربّها ناظرة"[14] وكلها مشاهد في حضرة اليقين والنور، و "النور الأبيض هو من أقرب الألوان دلالة على الواحديّة ذلك لأنّ الواحديّة هي أقرب ما تكون من دواة الحبر إذا جاز الوصف والأشياء والحروف والأسماء والصّفات كلّها متعيّنة في الحبر لكنّها لم تظهر بعد على سطح الورق، فهي موجودة معدومة، موجودة لأنّها متعيّنة في الحبر، معدومة لأنّها لا وجود لها خارج الحبر أي: على سطح الورقة، فكذلك النّور الأبيض فهو من حيث الحقيقة يتضمن الألوان جميعها الأساسيّ منها والمركب"[15] فاللون هنا يتجاوز معانيه العرفية التي تدل على الصّفاء، والنّقاء، والطهارة، والسلام والاستسلام، ليغدو النّور الذي نستدل به على عالم الروح والغيب المتواري.

يقول السّارد وهو يخاطب زوجته رفيقة الجنّة:

"_أرجوك لا تذكريني ببياض اليقين، لا تعيديني لذكرى الثلج..

_ أ تخاف الثلج إلى هذا الحد؟

صوبت زاوية التخمين عندها:

_ بل أصبحت أخشى التّعلق الوهميّ .. أخشى أن يحاصرني بياض الثلج .. وأن تهيم روحي مرّة ثانية طلبا لليقين خارج مجال التغطية، بعيدا عن جسدي الفاني .. يكفي أن أراها في رؤيا كفلق الصّبح" [16]

وهنا يشكل السواد العالم الواقعي الموازي للعالم العلوي والذي يحجب الأنوار والبياض "فالسّواد هو الاحتجاب: أي سيادة الحجب الظلمانيّة على غيرها من الألوان فجعلتها تصطبغ بصبغتها فانمحت بذلك هوياتها فلم يبقى إلا الحجب.. دلالة على أنّ صاحبها ساد بجهالته على نفسه ولن يسمح بنمو أيّة ولادة للنّور في كيانه"[17] فارتباطه في المعنى الصوفي بالحجب يرده لصراع الإنسان الأزلي بين النفس والدنيا وشهواتها التي تعمي بصيرته، وتضل سبيله نحو السمو الروحي فتحجب عنه أنوار الحق بسوء جهالته.

والسواد في الرواية يشي بظلاميّة الواقع، كونه حمّالا لدلالات الألم، والحزن، والموت ينفتح على مأساة الأمّة الإسلاميّة من خلال جريمة استشهاد هايدي، وعلى البعد الطينيّ للإنسان المدنّس بدم أخيه الإنسان، والمسلم المدنّس بالخذلان الذي حجبت سطوة العصر المادي عنه يقينه وعقيدته "كما أنّه زمن الخوف من المجهول والميل إلى التكتّم، ولكونه سلب اللّون يدلّ على العدميّة والفناء"[18].

يمثل السواد كذلك سياق الشك والظن، لم للظلامية من تغييب للرؤيا، وتشويش للنظر، وحجب للبصيرة "فالسواد هو علامة المحجوب كما يرى ابن عربي، والمحجوب هو الذي يحتجب بما سوى الله تعالى، سواء كان هذا السواد ماديّا أو روحيّا"[19].

وبين البياض والسواد يتولد عالم الرواية داخل التناقض، ليتجسّد من خلال اللونين انكتاب الرواية بسواد واقعها، على بياض صفحة تتسرب إليها روحانية السّارد في شطحه الصوفيّ حيث يقول: " فقد تماهى الكلّ بالكلّ.. تماهى نصّ الحكي بسواده.. فقط أنا وحدي الآن أتبع لغتي.. لغة الحكي.. لغتي تكتبني وتأخذني بعيدا عني.. تعبر بي كالضرير متاهات البياض وتصيّرني الرّاوي والمرويّ والمروي عنه"[20].

ورغم غلبة حضور البياض كعلامة لونيّة على امتداد الرواية يريد السارد من خلالها الخروج من دائرة الظن، إلاّ أنّ السواد كان وقعه أكثر قوة لأنه مثّل الواقع بوحشيته، مما أبقى السارد في منطقة رمادية تائه المعالم يجنح دوما للهروب والفرار نحو رقعة اليقين المنشود، لكن انتكاسة الخذلان كانت نصيبه ليتمثل من خلالها عمق الهوان الذي تقبع فيه الأمة الإسلامية، فيحمل البياض راية الهزيمة ووقع الاستسلام أمام غطرسة السواد الذي يمثل وحشية الواقع.

فكان المزج "بين الأسود والأبيض يدلّ على الضبابيّة وعدم الوضوح والشّك، ويأتي الجمع بين اللونين الأسود والأبيض للدلالة على الحيرة والاضطراب وكسر آفاق التّوقع و"دالا" على التخبط"[21].

ولعل هذا التخبط والاضراب رسخه الخطاب اللوني الفاعل داخل النص، فمثل حضور اللونين في الرواية بعدا بصريّا زاد من شعريّة اللّغة وإيحائها وعمّق دلالاتها المتراوحة بين عالمين متناقضين نقتفيهما من خلال رمزية الألوان لكن بياض التجربة الصوفيّة يحفّ السرد ليتخلق نصّ البياض من رحم السواد الذي يمثله حبر الكتابة، ومن صميم هذا التناقض ينبع هذا الامتزاج المتجانس بين السيرورة السردية والحالة الصوفية.

3. صوفية الخضرة وسيمياء اللون:

يعدّ هذا اللون من أكثر الألوان استحبابا عند العرب وباقي الأمم منذ القدم، فهو لون الخصب، والنماء، والخير وتبعا لهذه الدلالات الإيجابية صار رمزا للعقيدة المحمّدية فمثل راية التوحيد، كما يعتبر لباس أهل الجنّة والنعيم لقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾(**الإنسان: 21**)[22].

ويبدو أن تركيبه الفيزيائي المعتدل جعله مبعث راحة وسكينة للنفس فـ "الأخضر قيمة معتدلة وسطية بين الساخن والبارد والعالي والهابط وهو لون مسكن منعش وإنساني"[23].

وحقق حضور هذا اللّون في رواية بياض اليقين مدلولات روحيّة ومعنوية، تتجلى من خلال المفهوم الصوفي حيث "يرى الشيخ عبد القادر الكيلاني .. أن النور الأخضر هو لون مرتبة النّفس الراضية الّتي ورد ذكرها في الخطاب الإلهي يقول تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ **[الفجر:28]**"[24].

والنّفس الرّاضية في الرواية مثلتها هايدي شهدكا أو شهيدة الثلج، التي حازت المبتغى ونالت المراد واعتلت مرتبة الشهداء والصديقين، وتبرز لنا هذه المعاني النورانية من خلال رؤى السارد التي تسمو لدار النعيم تصف لنا مقام هايدي ومنزلتها بعد أن فازت بالجنان وقرّت عينها، راضية مرضيّة فيقول:

"في تلك اللّيلة أصبت بالأرق إلى حدّ الهذيان، أيضا رأيت نفسي داخل مدن لألاءة.. داخل ليل أخضر، المدن كلّها صوامع ومآذن خضراء أصلها التربة وطلعها في عنان السماء الصّافية"[25].

هذه الرؤى التي كانت عزاء للسارد يمثل اللون الأخضر فيها العالم الغيبيّ، فلا يستدعي دلالة اللون في محيطه الأرضيّ الفاني "فاللّون الأخضر هنا يمثّل لنا دعوة لتّخلّي والتّحلّي أي أن نتخلى عن الوقوف مع اللون الأخضر الارضيّ، لنحصل على اللّون الأخضر في الجنان لأصالة الأخير وعدم تغيّره أو تعرّضه للفساد"[26].

كما حمل هذا اللون رمزية العقيدة الإسلاميّة في قول الكاتب "ثمّ أطياف خضر مغسولة كالعقيدة"[27] فلا يخرج اللون عن طابعه العرفاني الذي يمد النص بطاقات إيحائيّة تتجاوز اللغة إلى ما وراء اللغة، نحو المعنى الغيبيّ باعتبار –اللّون– دالا حاملا لمعان مشفّرة تنفتح على التأويل، فتتعدد الدلالات اللانهائيّة لتوحي بالبعد المعرفي العميق للروائي، وكلما اخضرت المشاهد كان الأستاذ يقف عند عتبات التلقي العرفاني فالأخضر يحمل رمزية المعرفة أو العرفان عند الصوفية وهو لباس الأولياء.

ويجتذب الاخضرار في الرواية طاقات إيجابية مفتوحة على الجنان والنعيم الرامز للخلاص والمستقر الذي تعيش فيه النفس طمأنينتها المتصلة بعوالم الغيب ويؤكد كلود عبيد كل ذلك في قوله: "أما المتصوفة فتقول أنه ساعد الإنسان على مواجهة الغرق والحريق.. والأخضر في الإسلام هو لون المعرفة، الأولياء في الجنة يلبسون الأخضر، يأخذ الأخضر إذن قيمة أسطورية، جنات خضراء حب طفولي"[28].

إن للخضرة حظها من الخطاب اللوني في الرواية، حيث برزت داخل أطر روحية متصلة بالبعد الصوفي الممتد عبر المكان فأثثت لأمداء الراحة والطمأنينة والسكينة، ولم تكن مجرد فضاء ممتد بل كانت لونا يتسع للبوح والترميز ولا يضيق به المعنى، لون الإهتداء والسلام، والعتبات التي تقود إلى النور، ولون الألفة التي يستأنس بها السالكون لعهدهم به في تمثلاته الأرضية الزائلة، وقوة حضوره في تجلياتهم الغيبية الماثلة في جنان الخلد والنعيم.

4. اللون الأحمر وسيمياء النقيض الوجداني:

يعد اللون الأحمر من الألوان الحيوية المزدحمة بالدلالات والإيحاءات، ومن أكثر الألوان شيوعا في مختلف الحضارات والثقافات منذ القدم إلى اليوم، وفي العربية ينسب اللون الأحمر للعديد من المعاني "قال ابن أثير وقيل: كني بالأحمر عن المشقة والشدة أي من أراد الحسن صبر على أشياء يكرهها...والعرب إذا قالوا: .. فلان أحمر وفلانة حمراء عنوا بياض اللون، والعرب تسمي الموالي الحمراء. والأحمر: الذي لا سلاح معه، والسنة الحمراء: الشديدة لأنّها واسطة بين السوداء والبيضاء"[29].

كما تطلق كلمة الأحمرين على العديد من الثنائيات ومنها: الذهب والزعفران، والخبز واللحم، واللحم والخمر.. ويكنى بهذا اللون عديد السياقات كالقول ليلة حمراء أي ليلة ماجنة وخليعة، وأراه العين الحمراء أي

توعده وهدده. "ويرى القاشاني أن (الموت الأحمر) وهو من الاصطلاحات الصوفية ويراد به مجاهدة النفس ومخالفة هواها، وهذا هو الموت الجامع لباقي الموتات ويراد به الموت الأسود"[30].

ويعدّ هذا اللون جامعا للنقيض (الحياة/ الموت) من خلال تدرجاته اللونية المتراوحة بين القاتم القاني والفاتح الساطع، حيث تتباين الدلالات بين اشتداده وخفوته حدّ التطرف فـ "الأحمر الفاتح الساطع، النابذ، هو نهاري، مذكر محفّز للعمل والسلوك، يلقي ألقه على كلّ شيء كما الشمس، بقوة لا مجال لخفضها. والأحمر القاتم بخلاف ذلك ليلي مؤنث، سر، جاذب يمثل الغموض"[31].

فاللون الأحمر أحد الألوان الأساسية الحارة وهو لون النار والدم، ويحمل دلالات روحية وطاقات إيحائية مهمة قادرة على التعبير عن العواطف الجوانية للإنسان، وعوالمه الباطنية حيث يقول كلود عبيد في هذا الصدد: "الأحمر هو لون الروح، لون الشهوة، لون القلب، هو لون العلوم والمعرفة الباطنية الممنوعة على غير المسارين ...كذلك نجد المحيطات اليونانية المحمرة، والبحر الأحمر تتصف بالرمزية ذاتها، تمثل الجوف حيث يجري تبادل الأدوار بين الموت والحياة ويتحول أحدهما ليصبح الآخر"[32].

ولابد أن حضوره في رواية "بياض اليقين" لايبرح هذه المعاني الروحية كونه متصلا بخطاب صوفي، لا يرى في اللون بعده الحسي، ولا دلالاته الرمزية المعهودة، فيقتحم لعبة التشكيل لخطاب سردي ينمو ويتخلق من رحم المأساة التي تعيشها الأمة وانطلاقا من عتبات الرواية أولى، يتخذ منحى دراميا من خلال مشهد اغتيال شهيدة الثلج "هايدي"، فيحيل الدم القاني لعنف المشهد "عبر تثوير حساسية اللون واستغلال طاقة اللهب و الموت فيه، في السبيل إلى خلق تجربة معنى تنتقل من فضاء الحب إلى فضاء الحرب"[33] لكنه لا يحصر اللون في دائرة التمظهر الدرامي الضيق، ولا يعلي من خلاله نبرة التحدي ليكون اللون الأحمر نقطة الدم و الثأر و الثورة، بل يفتح له فضاءات العرفان الرحبة كنوع من الهروب عن الواقع الدموي فتتلاشى صلاته الحسية لترتقي إلى ما لا عين رأت، و لا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . فتتراءى له هايدي في بعدها السماوي مزدانة بحلل الفيض الرباني كما في قوله: "لم يكن لها حجابها أو معطفها القوقازي الطويل. من حولها غلمان أو ولدان يلهون بالياقوت الأحمر اللماع، كأنها شقائق الجلنار"[34] ويقول أيضا: "هزت رأسها غير المخمر والمتوج بالياقوت الأحمر"[35].

ونجد الياقوت الأحمر حاضرا كزينة وحلي جاعلا اللون الأحمر فيه دالا على مقامات التشريف والتتويج. فحوله السارد من معانيه الدموية التي سيطرت على جريمة هايدي المنكل بجسدها، إلى حضور إيجابي كللها

بتاج الشهادة في جنات النعيم.وللون الأحمر دلالاته في العرفان الصوفي "والنور الأحمر هو لون النفس الملهمة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)﴾ [الشمس: 7-8]، ولقد ورد ذكر اللون الأحمر في القرآن الكريم في الكثير من الآيات"[36].

والنفس الملهمة عند الصوفية هي المرحلة الثالثة من مراحل النفس وتلي النفس اللوامة والنفس المرضية، واتخاذهم اللون الأحمر رمزا لها نابع من تركيبه اللوني الذي يمتزج فيه الأبيض والأسود مع غلبة السواد فيه، كون النفس قد تهوي وتحيد عن الحق، وهذا يمكن الوقوف عليه من خلال النص حيث ينتصر السارد لدلالة الحب التي يحملها اللون الأحمر وتغدو هذه المحبة طريقا للذنب والمعصية في قوله: "هايدي حبة القلب ياقوتة الثلج ربما شعرنا بالندم وبفداحة المعصية التي وقعنا فيها نحن الإثنين"[37].

إن التوازن الروحي الذي ينشده السارد يحتم عليه وضع خطوط حمراء لا يتجاوزها في علاقته بهايدي حتى في تهويماته ومناماته وهو يعبر عن الحب الصوفي يندفع مرصعا مقامها العلي بصور الجنان في تناص مع القرآن الكريم الذي تجلى من خلال حلية الياقوت، فاللون الأحمر يتشكل بلفظه أو يقترن بالأشياء التي تصطبغ به، ولا يستفيض في ابراز جانبه الدرامي الدامي بل يرسمه لوحات للتجلي والوصل في أبهى مقامات العرفان، رغم ارتباطه بالغياب والموت إلا أن هذا اللون في الرواية حقق طاقات إيجابية عالية من الإيحاء والترميز.

خاتمة:

ما نخلص إليه ختاما أن رواية "بياض اليقين" لـ عبد القادر عميش قد أبانت عن اتجاه جديد بدأت تنهجه الرواية الجزائرية تحت وطء التجريب يتجاوز ابتداع تقنيات سردية جديدة إلى الوصول لنوع روائي يستقي من التراث الصوفي تجربة سردية فريدة متمثلة في الرواية الصوفية.

استطاعت الرواية الجزائرية من خلال رواية "بياض اليقين" أن توسع التداخل الأجناسي للرواية الذي تجاوز المستوى الموضوعي ـالصوفي ـ (مستوى المضمون)، إلى التداخل اللوني مع الفنون التشكيلية على مستوى الكتابة والترميز ما جعل فعل القراءة لعبة سيميائية ترصد العلاقة بين اللون والمعاني الصوفية.

ظهر اللون في الرواية الصوفية كخطاب رامز ينهض على استثمار طاقاته التشكيلية والإيحائية، ويخلق من فضاء الرواية كونا حيا داخل تجربة الصوفي ليلتقي المفهوم الحسي للون بالمشاهد الغيبية في لحظات الانخطاف التجلي التي يعايشها بطل الرواية.

كان لتوظيف اللون داخل الرواية أثر بالغ في رسم معالم الشخصيات حيث ارتبطت دلالاتها بالبعدين الروحي الغيبي / والواقعي الحسي ونقل استخدام اللون بدلالته الصوفية الشخصية من النمطية إلى الشخصية العجائبية الخارقة التي كسرت منطقية التوظيف السردي منسجمة في كل ذلك مع الطرح الحداثي الرامي لتجاوز كل مألوف.

أثث اللون بإيحائه الصوفي في رواية بياض اليقين لفضاء سريالي، تلونت فيها الأمكنة بأقصى درجات التخييل وخرج اللون من حدوده الفيزيائية الضيقة ليعتنق المعنى الصوفي ويساهم في إثراء الصورة وتعميق الدلالة.

تجاوز توظيف اللون في رواية "بياض اليقين" استثمار البعد الجمالي الفني فيها، إلى وظائف شعرية تشكل المعمار السردي للرواية كبؤرة توجه الفعل القرائي، كدال لوني متعدد المدلولات والإحالات، وإن طغى البياض على اللوحات السردية التي لونها الكاتب –رامزا في كل ذلك للكون الروحي الذي ينشده– فإن السواد شكل شعرية النقيض داخلها وأحال السياق السردي إلى مضامين الراهن والواقع المعيش للأمة الإسلامية.

استعان الروائي في توظيفه للون بعدة تقنيات إجرائية كالانزياح، والتضاد مما خلق ديناميكية تفاعلية مع النص السردي زاد من شعريته وإيحائه. كما شهدت الرواية تنويعا بارزا في استخدام الخطاب اللوني: (الأبيض، الأسود، الأخضر، الأحمر) هذا الحضور الذي اكتسى طابعا صوفيا تجلى في قدرة السارد على تفعيل الخطاب اللوني داخل النص السردي وفق رؤية صوفية، الأمر الذي يؤكد على أن اللون كعلامة سيميائية جزء لا يتجزأ من ثقافة الإنسان وخبرته.

الهوامش والإحالات:

[1]– **وافية بن مسعود**، « سيميائية اللّون واستراتيجية الدّلالة في رواية "أهل البياض" لمبارك ربيع » / *Insaniyat* ,*إنسانيات* [En ligne], 67 | 2015, mis en ligne le 20 juillet 2016, consulté le 29 janvier 2023. URL : http://journals.openedition.org/insaniyat/14976 ; DOI : https://doi.org/10.4000/insaniyat.14976 ص3

[2]– عبد الناصر حسن محمد، سيميوطيقيا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 2002، ص9.

[3]– فاتن عبد الجبار جواد، اللون لعبة سيميائية بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط.1، عمان، الأردن، 2010، ص57.

[4]– ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، ط.8، بيروت، لبنان، الجزء 13، 2014، ص458.

[5]- كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، لبنان، 2013، ص59.

[6]- المرجع نفسه، ص61.

[7]- وافية بن مسعود، «سيميائية اللّون واستراتيجية الدّلالة في رواية "أهل البياض" لمبارك ربيع»، ص4، 5 عن: جاك فونتاني، سيميولوجيا المرئي، تر: علي أسعد، دار الحوار، دمشق، ط1، سوريا، 2003، ص 37.

[8]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللّون في القرآن والفكر الصّوفي، دار الزّمان للطباعة والنشر، ط.1، دمشق، سوريا، 2012، ص 105.

[9]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص99.

[10]- المصدر نفسه، ص100.

[11]- أحمد مختار، اللغة واللون، عالم الكتب للنّشر والتوزيع، ط2، القاهرة، مصر، 1997، ص69.

[12]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص 65.

[13]- المصدر نفسه، ص 51.

[14]- المصدر نفسه، ص 36.

[15]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، ص97.

[16]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص183.

[17]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللّون في القرآن والفكر الصّوفي، ص 205.

[18]- أحمد مختار عمر، اللغة واللّون، ص186.

[19]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصّوفي، ص206.

[20]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص 188.

[21]- محمد هزاع الزواهرة، اللون ودلالته في الشعر، دار حامد، د.ط، عمان، الأردن، د.س، ص87.

[22]- (سورة الإنسان: 21) .

[23]- كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها، ص91.

[24]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، ص47.

[25]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص44.

[26]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللون في القرآن والفكر الصوفي، ص 31.

[27]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص11.

[28]- كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها، ص96-97.

[29]- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج4، ص210.

[30]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللّون في القرآن والفكر الصّوفي، ص70.

[31]-كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها، ص73.

[32]- المرجع نفسه، ص74-75.

[33]- فاتن عبد الجبار جواد، اللون لعبة سيميائية بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري، ص140.

[34]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص103.

[35]- المصدر نفسه، ص106.

[36]- ضاري مظهر صالح، دلالة اللّون في القرآن والفكر الصّوفي، ص66.

[37]- عبد القادر عميش، بياض اليقين، ص124.

قائمة المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم رواية حفص عن عاصم.

المصدر: عبد القادر عمّيش، بياض اليقين، دار خيال للنّشر والترجمة، ط. 2، الجزائر، 2022.

المراجع:

-الكتب:

1 -ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الجزء 13، ط8، 2014.

2 -أحمد مختار، اللغة واللون، عالم الكتب للنّشر والتوزيع، القاهرة، ط2، مصر، 1997

3 -ضاري مظهر صالح، دلالة اللّون في القرآن والفكر الصّوفي، دار الزّمان للطباعة والنشر، ط.1، دمشق، سوريا، 2012.

4 -عبد الناصر حسن محمد، سيميوطيقيا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 2002.

5 -فاتن عبد الجبار جواد، اللون لعبة سيميائية بحث إجرائي في تشكيل المعنى الشعري، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط.1، عمان، الأردن، 2010، ص57.

6-كلود عبيد، الألوان: دورها، تصنيفها، مصادرها، رمزيتها، دلالتها، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، لبنان، 2013.

7- محمد هزاع الزواهرة، اللون ودلالته في الشعر، دار حامد، د.ط، عمان، الأردن، د.س.

-المجلة:

علي القاسم الخرابشة، تراسل الحواس وأثره في بناء الصورة الشعرية، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة علجون، الأردن، العدد 33، صيف2019.

-موقع الأنترنت:

وافية بن مسعود،« سيميائية اللّون واستراتيجية الدّلالة في رواية "أهل البياض" لمبارك ربيع »/ *Insaniyat ,إنسانيات* [En ligne], mis en ligne le 20 juillet 2016, consulté le 29 janvier 2023. URL : http://journals.openedition.org/insaniyat/14976 ; DOI : https://doi.org/10.4000/insaniyat.14976 | 2015, 67